في سوسيولوجيا الشخصية الكولونيالية... كمُنَغِص للعيش المشترك دراسة سوسيو-نفسية في بناء الذهنية والشخصية الكولونيالية بالجزائر نموذجا

الأستاذ: بوعبد الله محمد
جامعة الجزائر2
البريد الالكتروني:ma30@live.fr

ملخص:
تعتبر النزعة الكولونيالية ظاهرة مزمنة ممتدة في التاريخ ومستمرة في المستقبل، ونظرا لتنامي النيوكولونيالية في العصر الحالي يدعو العديد من المفكرين والمهتمين إلى تأسيس دراسات ما بعد الإستعمار لدراسة وإستكشاف أغوار المخيال الإستعماري لأجل فهم بناء الشخصية والذهنية الكولونيالية في الإستعمار الكلاسيكي لإستشراف بناء الذهنية والشخصية النيوكولونيالية.

مقدمة:

في عصر أصبح يشهد تصاعد لمظاهر النَزَعَات (les tendances) النيوكولونيالية أو الإستعمار الجديد وغدى يتمظهر في أثواب عدة وتحت مسميات مختلفة، دفع الكثير من المفكرين والأدباء والإقتصاديين والفلاسفة إلى أهمية توجيه الجهود المعرفية لدراسة وتمحيص وتحليل هاته الظاهرة الإستعمارية التي أصبحت تتسم بالذكاء والفعل الإستراتيجيagir stratigique بالمفهوم الهابرماسي، ولا تختلف الظاهرة الإستعمارية الجديدة عن الإستعمار العسكري المباشر في تحقيق الهيمنة والتسلط وممارسة الجور الإجتماعي على تلك الشعوب وإختراقوإنتهاك سيادتها وإستنزاف ثرواتها عبر فبركة المشاكل الإقتصاديةوالإجتماعية والدعاية المؤدلجة الموجَهة، وكذا حبك الإنقلابات العسكرية والسياسية لإيصال أزلامهم إلى مناصب القيادة، إضافة إلى العمل الجاد على تفكيك تلك الدول عبر اللعب على النعرات الطائفية والمذهبية والهويات الفرعية الضيقة (ميكروهوية) وتشجيع التمرد

العسكري والسياسي للأقليات الدينية والإثنيات العرقية على حساب الدولة الوطنية والهوية الجامعة (ماكروهوية).

كما هو في الإستعمار الكلاسيكي القديم في إعتماده على العسكر في إستعمار تلك الشعوب وبتدعيم ومساندة مختلف العلوم الإستعمارية المسخرة لهذا الهدف كالسوسيولوجيا والبسيكولوجيا والأنتروبولوجيا وبتبرير نظريات كولونيالية مشجعة كنظرية مركزية الثقافة الأروبية والتفوق البيولوجي للعرق الأبيض والإنسان الأروبي على باقي الأعراق، والتي عنها يقول المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله رحمه الله في النموذج الجزائري: أن الاستعمار الفرنسي للجزائر لم يكن عسكريا بحتا وإنما ثقافيا وعلميا.

فكذلك النيوكولونيالية نجدها تعتمد مقاربات نظرية عديدة ومبررات فكرية متجددة، فإضافة إلى نظرية الفوضى الخلاقة نجد نظرية الدم التي قدمها الجنرال الأمريكي المتقاعد رالف بيترزRalf Peters وعززتها أطروحات وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر، وكذا أفكار ونظريات المفكر الأمريكي زبينغوربريجنسكي عن تقسيم وتأسيس دويلات لثقافات عرقية وإثنيات دينية وطوائف مذهبية.

وفي ضوء كل ذلك وضمن دراسات ما بعد الإستعمار (ما بعد كولونيالية) poste colonialisme وجب البحث في بناء الشخصية والذهنية الكولونيالية (الإنسان الكولونيالي) في نسخته القديمة الكلاسيكية لأجل فهم واستيعابواستشراف ملامح شخصية وبناء ذهنية الإنسان الكولونيالي وفهم نزعته النيوكولونيالية.

ولأنه حسب المفكر السوسيولوجي الفرنسي لوسيان غولدمان Lucien Goldman "أن كل ظاهرة اجتماعية تعد ظاهرة تاريخية، والعكس بالعكس، وينجم عن ذلك أن التاريخ وعلم الاجتماع يبحثان في الظاهرات نفسها"، تم اعتماد المدخل السوسيو-تاريخي لدراسة ملامح الشخصية وبناء الذهنية الكولونيالية، وفي هذا المقام تم إختيار الإنسان الفرنسي والأروبي بصفة عامة كنموذج للإنسان الكولونيالي ونزعته الإستعمارية المتقدة؛ وعليه تم طرح التساؤل التالي: ماهي ملامح الشخصية والذهنية الكولونيالية لدى الإنسان الأروبي الاستيطاني بالجزائر؟

1- أهمية الإحتقار والعنصرية في بناء الذهنية الكولونيالية.

تعتبر الثقافة الشعبية كمدخل علمي مهم لفهم بناء ذهنية الأقلية الأروبية فبداية دعنا نتطرق إلى أهمية الإصدارات الأدبية كالقصص والحكايات والروايات في

التحليل الإجتماعي وفي فهم ذهنية ونمط تفكير فئة ما من المجتمع حيث تعتبر إهتمامات الشخص وميوله عن ملامح ذهنية وبناء معين لشخصية هذا الإنسان.

فيعتبر رواد العلوم الإجتماعية هذا البناء جزءا وأساسا من أي معاملات، بدءا من العلاقات الشخصية كالصداقة إلى العلاقات العامة كمفاوضات العمل والعلاقات الدولية كالإتفاقيات التجارية أو شن الحروب، حيث يتفق كل من س.رايت ميلز (C.wright Mills) ومارفن سكوت (Marvin scott) وستانفورد ليمان (Stanford lyman) بأنها موقف لفظي لشرح سلوك يعتبر إنحرافي، فيما يعتبرها دفيد ماتزا (David Matza) بأن القصص والحكايات تستخدم لإدانة الآخرين، وإنكار المسؤولية عن الأمور السيئة وإلقائها على الآخرين[1]، وهذا بالضبط ما سنتناوله بالتحليل عندما نعالج تلك النعوت والأوصاف السيئة التي كانت ترد في القصص الشعبية عند الأقلية الأروبية بالجزائر حيث يغلب عليها التشبيه بالحيونات وإلصاق الأوصاف المرتبطة بالتخلف والدونية والبدائية مثل: سال أراب، راتون،... وغيرها حيث يقول فيها أبو القاسم سعد الله بأنها تحتاج إلى معجم لكتابتها نظرا لكثرة هذه الألفاظ اللاّأخلاقية.

وتشير مختلف السرديات في بعض الأحيان إلى التعبير عن وضعية إجتماعية معينة وعن وضعية علاقة إجتماعية بين فئات المجتمع، وهذا ما تشير إليه باتريسيا تورنر (Patricia Turner) التي تطرقت إلى القصص التي كان ينشرها السود في أمريكا، والتي تعبّر عن قصص الإضطهاد التي يعانيها السود، وهي تعبير كذلك عن قصص تآمرية لجماعة أو فئة ضد أخرى[2].

وهذا ما سيتجلى لنا من خلال تناول الإصدارات الأدبية كروايات لاكاغايوس التي كانت تحقق رواجا واسعا لدى الأروبيين بالجزائر:

أ- مكون الإحتقار في ذهنية المستوطنين: أما عن تناولنا للثقافة الشعبية للمستوطنين الأروبيين فإنها حسب الأستاذ أبو القاسم سعد الله هي تعبير عن الحياة اليومية للإنسان الأروبي مع الفرد الجزائري، فهي سلوك الإنسان مع الإنسان الذي أصبح في الواقع يعبر عن علاقة حيوان مع حيوان، وهذه الثقافة الشعبية للأقلية الأروبية تعبّر عنها ما نشرته الصحف الكولونيالية وما بثته المسرحيات والنشريات والروايات التي يشرف عليها هؤلاء المستوطنون[3]، والتي يُنظر إليها سوسيولوجيا على أنها مؤشر لفهم تكوين البنية الذهنية للأقلية الأروبية ونوعية العلاقة والمعاملة التي تبديها نحو الجزائريين.

وهذا ما يوكده أبو القاسم سعد الله كون أن هذه الإصدارات الشعبية الرخيصة -وهي المسماة بروايات زوج سوردي- تعتبر مصدر مهم لفهم عقلية الأقدام السوداء، وتعطينا المفاتيح لنظرة داخلية مدهشة في الذهنية الجماعية للإنسان الأروبي الجزائري[4].

ونعني بهذه الإصدارات بالخصوص سلسلة لاكاغايوس*(la cagayous) التي ظلت تصدر مدة ثلاثة عقود تقريبا من 1891-1920 في إصدارات أسبوعية في ستة عشرة صفحة، وكانت تستعمل اللهجة الشعبية للمستوطنين الحضريين والتي يطلق عليها باتاويت (Pataoite) وهي عامة فرنسية (Patois) طُعِمت بعديد الألفاظ من اللغات الإسبانية والإيطالية والمالطية وكذا العربية[5]، وكان بطل هذه الروايات الذي أخذ شخصيات عدة حسب كل عدد فإنه دائما ينتصر ويؤدب العربي واليهودي[6]؛ وهذا ما جعل الأروبيون بالجزائر يتغنون به مرددين: (nous sommes tous des cagayous) وهي تعني كلنا كاغايوس[7]، وهذا معناه أننا كلنا أبطال نؤدب وننتصر دائما ونسيطر على العربي.

وهذا بالإضافة إلى إصدارات أسبوعية أخرى مثل بابالويت (Papa louette) التي صدرت ثماني سنوات من (1906-1914)، ولوكوشون، لاكرافاش، لوديابل أكاترا، لو كوكو ألجيريان، وكلها ظهرت بين 1898 و1912[8].

وهذه الإصدارات رغم إختلافها وتعددها إلا أنها تتفق في كونها جاءت في قالب سخري، تهكمي، إستهزائي، إحتقاري، حيث أن المفردات والتعابير التي إستخدمها المستوطنون في صحفهم ورواياتهم ومختلف إصداراتهم الأدبية والثقافية تعتبر تراث مهم للتحليل السوسيولوجي من أجل فتح أيقونة والإطلاع عليها من أجل فهم بناء الذهنية الأروبية في الجزائر وكيفية تعاملهم مع الجزائريين للوصول لفهم مختلف السلوكيات الكولونيالية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ولهذا نجد علماء الأنتروبولوجيا** يولون أهيمة خاصة إلى النعوت التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية، حيث يرون أن اللازمات (labeles) ذات القوة الفاعلة تفقد بعض قوتها عندما تتغير من إستعالها في الأسماء إلى النعوت، حيث تضاف هنا خصائص تحديد الموضوع بطريقة أكثر دقة وصدق بإعتباره فرديا[9]، فيستخدم "العربي" بدل "الشعب" حيث يتضمن نعت العربي عدة خصائص إحتقارية فمثلا حكاية عربية (أي قصة معقدة)، وشغل عربي (أي عمل غير متقن)، وكل شيء صنع على الطريقة العربية يكتسب بذلك معنى منحط ووحشي، متخلف،

وغير جمالي[10]؛ كما تحول اسم فاطمة إلى نعت وصفة أصبح يطلقه المستوطنون على النساء العربيات وهذا لأن اسم فاطمة تحول إلى مرادف قليلة الأدب...

ومن **اللازمات (labels)** العديدة والأكثر إنتشارا وإستعمالا من طرف المستوطنين والتي يقول فيها أبو القاسم سعد الله أنها تستحق أن نضع معجما خاص بهذه الألفاظ والتعابير والنعوت واللازمات الكثيرة ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:[11]

- **كلمة العربي أو البيكو:** فالأجزاء المؤلفة لصورة البيكو في ذهنية الأقدام السوداء مكونة من خمسة لوازم رئيسية وهي أنه: وحشي، فقير، قذر، غشاش، وشهواني.
- **لازمة فقير أو مسكين:** والتي إرتبطت بها عدة ألفاظ وعبارات من اللهجة الباتاواتية مثل مزلوط (فقير، مسكين)، أو عبارة يعمل بطال (أي ليس له عمل).
- **لازمة قذر أو صال أراب:** أي العربي القذر وهنا نذكر كيف صوّر الشاعر السافر-بابا لويت- مدينة الجزائر حيث قال: "عرب خسيسون وكريهو الرائحة في قذارتهم الأهلية... تصيب مدينة الجزائر بالعدوى، وها هو القمل يتحرك بحرية حيثما شاء في عربات الترام".
- كما التصقت بالجزائري لازمات مثل **معدي (infectien)، السراق (أي السارق، اللص)، والخبيث، الشهواني** بالإضافة إلى أنه **إنسان خشن غير ظريف، وغير متأدب** وهو بإختصار إنسان دون البشر وحيوان متوحش،... وغيرها من الألفاظ والتعابير البذيئة والدنيئة.

ولهذا يختصر الأديب الجزائري مولود فرعون في "يومياته" ملامح وصورة الجزائر والأهلي في الذهنية الكولونيالية عندما يتساءل من هو الأهلي في أعين الأروبي؟، «إنه عامل مشترك، خادمة منزل، مخلوق غير متجانس بطرق مثيرة للضحك، وعادات غريبة، ولغة مستحيلة»[12].

فإذا كانت إصدارات كاغايوس قد حافظت على شعبيتها بين الطبقة الدنيا والتي كانت إصداراتها الأسبوعية سرعان ما يختطفها الناس من الأكشاك وتباع عن طريق البريد، فإن الطبقة التي توصف بالعليا (أتحفظ على هذا الوصف) فقد تقززوا على

لغتها السوقية[13]، وهذا ما دفعنا للبحث عن صورة الجزائري في المخيلة الفرنسية لدى أدبائها المرموقين والمعروفين.

فكانت الإصدارات الأدبية والثقافية الواسعة لدى الأدباء المعروفين بمستوى إنتاجاتهم، والتي تعد مادة إستهلاكية ثقافية للطبقة العليا سوءا للفرنسيين (في فرنسا) أو المستوطنين الأروبيين في الجزائر، فوجدنا أن هذه الإصدارات الأدابية لم تختلفعن الإصدارات الأدبية للطبقة الدنيا فكلاهما صوّر الجزائري بالإنسان المتوحش أو الحيوان دون البشري، وبالكائن المتخلف الذي لا يمكنه أن يتعلم أو يتطور بحكم الدونية الحتمية والقصور البيولوجي المكون للإنسان الجزائري وعليه فهو في حاجة ملحة في إعتقادهم لمن يقوده ويطوّره ويخرجه من حالة القصور والتخلف والبدائية التي يعيشها.

وهذا ما يؤكده محمد الطيبي الذي يرى أن المدونة النصية للفكر والأدب الإستعماري تتجلى فيها ثنائية الهوية المتعاكسة والمتباعدة بين الصفات الجيدة والإيجابية التي يحملها المستعمِر والصفات السيئة والسلبية التي تُمثل المستعمَر، وهذا ما يبينه الجدول الأتي:[14]

صورة المُتسعمَر الجزائري	صورة المُستعمِر الفرنسي والأروبي
- وسخ ورث وبشع	- جميل وأنيق ووسيم
- أمي وجاهل	- فاهم ومتفهم ومتعلم
- فقير ومتشرد	- ملاك وغنى ومثابر
- كسول وخامل	- محب للعمل
- متوحش وعنيف وفظ وبهيمة	- إنساني ورؤوف
- بدائي لا تاريخ له ولا حضارة	- صاحب تاريخ ومدنية وحضارة

جدول يمثل صورة كل من المستعمِر والمستعمَر في أدب الطبقة العليا الأروبية.

ب- مكون العنصرية في ذهنية المستوطنين: هنا نجد الكاتب اليهودي "ألبير ميمي(Albert Memmi)" يُورد في كتابه "صورة المستعمر" مفهوم العنصرية كإحدى أوجه ومكونات الإستدمار الأساسية عندما يصرح: "والعنصرية هكذا لا تبدو كتفصيل عرضي بعض الشيء، بل كعنصر متوحد في الجوهر مع الإستدمار، فهي التعبير الأفضل للفعل الكولونيالي"[15]؛ حيث أن العنصرية تختصر العلاقة الجوهرية التي تربط بين الإستدماري والأهلي، كما أن العنصرية الكولونيالية كمجموعة

سلوكات وردود أفعال مكتسبة تتكرر منذ الطفولة الأولى، فهي ثابتة ومُعززة بالتربية، وتنغرس عفويا في الحركات والكلمات حتى الأكثر بساطة[16].

كما كانت الأقلية الأروبية بالجزائر مزيج من أجناس عدة فرنسيين، إيطاليين، إسبانيين ويهود وغيرهم يتباغضون ويتكارهون ويحقد بعضهم على بعض ويتبادلون العنف والجريمة ليصل حد القتل، ونذكر أن اليهود كانوا من الأعراق التي كان يبغضها الأروبيين والأقدام السوداء في الجزائر وتُمارس ضدها كذلك العنصرية والإحتقار نظرا لخبثهم ونتانتهم كما يرى هتلر في كتابه "كفاحي" لكن في الأخير لما يتعلق الأمر بالإنسان الجزائري والأهلي فإنه يجمعهم كما يرى "فرحات عباس" التضامن الإستعماري، وتوحدهم العنصرية ضد العرب والتي تعد حسب تعبير فرحات عباس الرابطة القوية التي تجمع تلك الطبقات فتجعل منها بناءا مرصوصا.

ومما زاد من هذه البنية والثقافة العنصرية قوة هو تزامنها تقريبا مع النهضة التي طرأت على الصناعات الثقافية الحديثة، وبخاصة ما تعلق بصناعة الكتاب وإنتشار الجرائد التي ساهمت بقدر كبير في بناء رأي عام إحتلالي[17]؛ مثل الصحف اليومية الصادرة في الجزائر التي يملكها أصحاب الملايير فجرائد "ليكو دالجيري"، و"لاديبيش ألجيريان"، و"ليكو دوران" و"لادبيش دوليست" التي تغتنم جميع الفرص لتُوتِر العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، حيث تجعل من العنصرية صناعة تصبغ عليها الأرباح وتُدِر عليها الأنعام[18]، في ظل إنعدام الأخلاق في زمن اللائكية والرأسمالية المتوحشة ذات الخلفية الإقطاعية.

والتمييز العنصري لا يقتصر على الظواهر الإجتماعية والعلاقات الإنسانية فحسب، بل يتعداها إلى الأمور الطبيعية والبيولوجية، لتصل درجة تُصنَف فيها الخضر والفواكه بدورها إلى صنفين فرنسية وعربية[19]؛ وهنا كلمة "سلع فرنسية" و"سلع عربية" ليست أسماء بقدر ما هي نعوت لها خلفية إحتقارية ممزوجة بالعنصرية وهذا ما تطرقنا إليه سابقا في ما يخص اللازمات الإحتقارية المستخدمة لدى الأقلية الأروبية فلما نقول فرنسية بحسب تعبيرهم هي شيء وسيم، وجيد، لبق، مؤدب ومتحضر، ...وغيرها، ولما نقول عربية مثل فاكهة عربية أي أنها فاكهة فاسدة وغير ممتازة وليست بها جودة، ويقال حي عربي، أي حي وسخ نتن فيه رائحة كريهة وأمراض معدية، والعكس صحيح فحي أروبي أي حي راقي نقي به رائحة زكية وحضارة راقية ومعاملة لبقة وسلوكيات متمدنة وهكذا.

أما فيما يتعلق بالثقافة فالعنصرية فيها بلغت أوجها خصوصا فيما تعلق بالتعليم حيث أن هناك مدرستين متمايزتين بفعل فاعل المدرسة الفرنسية والمدرسة الأهلية، ولكل منهما شهادة خاصة ومختلفة عن الأخرى، شهادة فرنسية وشهادة أهلية[20].

وهنا تظهر العنصرية المقننة النابعة من رحم السياسة التعليمية الفرنسية المبنية على التجهيل وكذا المقولة الشائعة التي تقول: "أن الإنسان الجزائري كائن حيواني دون البشر لا يمكنه أن يتعلم أو يرتقي ويتطور"، لدرجة أن المستوطنون كانوا يعارضون إنشاء مدارس للأهالي، وهذا ما كانت تشهده المدرسة النورمالية ببوزريعة كمدرسة أهلية.

2- الملامح النفسية للشخصية الكولونيالية في الجزائر (السادية نموذجا)

التتبع الإستقرائي لتاريخ المستوطنون وسلوكياتهم وهواجسهم وعلاقاتهم مع الآخرين، يظهر لنا العديد من الملامح النفسية المعبرة عن الشخصية الكولونيالية لمستوطني الجزائر، ومن هذه الملامح العديدة نأخذ السادية كنموذج.

- **السادية (sadisme):** نسبة إلى "دي ساد ماركيز" (1740-1814)، وتعبر عن الشعور باللذة والإستمتاع من خلال تعذيب الآخرين وإلحاق الألم بهم وبالتالي بلغة علم النفس هي الميل المرضي للتعذيب وهي مظهر من مظاهر السلوك الغير السوي والشخصية المرضية[21].

والأمثلة عن هذه السادية هو التغني والتفاخر بتعذيب الأهالي، فما ذكره في مذكراته أحد القادة العسكريين الفرنسيين في مذكراته الجنرال شارنغاريني، إذ قال متحثا عن جنوده الذين خرجوا في عملية عسكرية غربي سهل متيجة "لقد وجدوا خير تسلية لهم في الغارات المتكرة التي كنت أشنها في الشتاء ضد القبائل المناهضة لنا فيما بين الخراش وبوركيكة"[22]؛ وهذا الجنرال دو مونتانياك إشتهر كقاطع الرؤوس قال في كتابه "رسائل جندي" يصف فيه إحدى جرائمه "...قد قطعت له رأسه ومعصم يده اليسرى ووصلت إلى المعسكر وقد نصبت الرأس في أعلى حربة وعلقت معصمه في مدك بندقية، فبعثنا بهذه الغنيمة إلى الجنرال باراكي الذي كان مُعسكِر بقربنا، فإبتهج مما رآه..."[23].

وقد إعترف روفيغوا Rovigo سنة 1832 بعد هجومه على قبيلة العوفية، التي أبادها عن بكرة أبيها ذبحا حيث باغتها في الليل وهي نائمة فبلغ عدد قتلاها 12000

شخصا، فقال يصف عودة الجنود من هذه الجريمة الشنعاء :"كان جنودنا ممتطين ظهور الخيل يحملون الرؤوس البشرية على نصال سيوفهم، أما حيواناتهم فقد بيعت إلى القنصلية الدنماركية أما أجزاء الأجسام الأخرى والملطخة بالدماء فقد أقيم منها معرض في باب عزون، وكان الناس يتفرجون على حلي النساء ثابتة في سواعدهن المقطوعة وأذانهم المبتورة"[24].

كما تطرق غرانميزون في كتابه "الإستعمار ...الإبادة" لسادية المستوطنين من خلال معالجته لظاهرة **التمثيل** بجثث القتلى بقوله :"نرى إذن كيف التمثيل بالموتى ليس فعلا مذنبا يقوم به جندي ثارت ثائرته أو تغلبت عليه غرائزه الدموية... بل كان من الممارسات الشائعة التي يعرفها الكل ويبتهج لها الكل على طول السُلَم العسكري بل ويشجعها المسؤولون..."[25].

كما نذكر سانت أرنو وهو من كبار السفاحين الفرنسيين في الجزائر حيث يقول أنه لما كنت أشعر بالملل وتراودني الأفكار السلبية أمر بقطع الرؤوس حتى أرتاح وأتسلى؛ وهو ما يُبيّن تجذُر السادية لدى المعمرين الذين جعلوا الأهلي للتسلية واللهو، وهذا ما يظهر من خلال التعذيب الذي كان يقوم به الضباط العسكريين من ممارسة فنون التعذيب العديدة، فهذا نوع التعذيب المعروف بالصيد والذي يعني إطلاق سراح المساجين الجزائريين في الغابة ثم القيام بصيدهم وتعلم الرماية فيهم وكذا إستخدام الشفاطة والكلاب الألمانية... وغيرها.

وهذا الجنرال بيجو يتحدث عما يشعر به من لذة في قتل الكثير من هؤلاء الأوباش-أي الجزائريين[26]؛ بالإضافة إلى ما قام به الفرنسيون من قطع رؤوس الجزائريين ووضعها في متحف اللوفر الفرنسي، وكأنها لوحة زيتية فريدة من نوعها، وهذا يعد أبشع صور السادية الفرنسية.

ولكن هذا ما يلخصه جاك بارك من أن الإستعمار لا يكتفي بإركاع المستعمَر وتدميره وإنما يريد التلذذ به كمستعمَر[27]؛ وهكذا يكون قد شهد شاهد من أهلها.

"مجندون يشهدون ...إننا مريضون، مريضون جدّا".

تطرق الكاتب والفيلسوف والوجودي الفرنسي جون بول سارتر[***] لكتاب "مجندون يشهدون" الذي ضم شهادات مجندون ورجال دين والعديد ممن عاش في الجزائر وشهد التجاوزات والإبادة الوحشية التي كان يتعرض لها الجزائريين، ويضيف سارتر قراءة هذا الكتاب بالمرهقة وغير المحتملة.

لكن نجده يصّر على قراءة هذا الكتاب فيقول: "إني أوصي بقراءة هذا الكتيب، وأوصي جميع الذين لم يعرفوه بعد، وأتمنى أن يقرءه جميع الفرنسيين، ذلك لإننا مريضون، مريضون جدّا..."[28]؛ وهكذا يُقّر سارتر بالنفسية المرضية للشخصية الكولونيالية الأروبية في الجزائر التي بدورها تفسر لنا ذلك الإقبال الواسع للمستوطنين على الجريمة والعنف أو الطبع التدميري كما يتناوله المفكر الألماني فلتر بنيامين.

- **وهذا بالإضافة إلى أمراض نفسية أخرى مثل:**

- **الشعور بالذنب وإحتقار الذات:** فنجد المستوطنون يعيشون في حالة من الكبرياء إتجاه البوادي المغلوبين على أمرهم، وفي حالة من عدم إرتياح النفس بسبب تأنيب الضمير المتأرجح بين الإنضباط للنظام من جهة والميل للبذخ والمتعة والتهور والأهواء العارمة من جهة أخرى، فهذا كافينياك يصرّح بأنه وجد نفسه محتارا في مهنته كعسكري متفنن في إضطهاد الأهالي، وهي مهنة كريهة، لأنه بعد متعة التقتيل يأتي الندم، ولن يبقى من هذه المتعة إلا الندم[29]؛ وهذا جون بول سارتر يقرها صراحة "فحين ألقوا بنا في مغامرة حقيرة، وضعوا في أنفسنا من الخارج شعورا بالذنب الاجتماعي"[30].

هذا بالإضافة إلى دعوة الجميع لقراءة كتاب "مجندون يشهدون" الذي تطرقنا إليه سابقا ويصرح فيه كذلك "...إننا مريضون، مريضون جدا..."، وهذا نظرا لبشاعة المشاهد والأعمال الإجرامية والتعذيبية في حق الأهالي والإنسانية مسجلة عودة الهمجية.

كما يضيف ألبير ميمي بأن المستوطنون يعيشون في حالة من إحتقار الذات ومن اللوم الدائم للذات، فالمستدمِر يعرف خاصيته وصورته الحقيقية المشينة والحقيرة والدموية ولهذا فهو يعمل جاهدا لإنتزاع صورة جيدة من الأخر أي الأهالي فيستخدم ميكانيزمات لتحقيق ذلك:

أ- فيلجأ إلى شرعنة الإستعمار بأنه رسالة حضارية وهو في مهمة تمدينية ليس إلا، وأن العنف والتقتيل والجرائم المرتكبة في حق الأهالي هدفها التكفير عن الذنوب لأنهم في رسالة دينية تبشيرية مسيحية، في حين يقول بعض القادة العسكريين لتبرير أفعالهم الإجرامية بأن من يواجه العرب يضطر إلى مثل هذه الأعمال لكونهم أجناس متوحشة.

ب- فالمستوطن يلجأ من جهة أخرى لسياسة الأرض المحروقة والإبادة الجماعية والتي ذكرنا منها بعض المشاهد المتعلقة بالسفاحين الأسطوريين في القضاء على الأهالي حتى يقضي على صورته السيئة لن الأهالي هم من يُقدم ويعزز إستمرارية هذه الصورة حيث يُعتبر الأهالي مرآة المستوطن ويسميها ألبير ميمي بالعنصرية الآتية من المستدمَر نحو المستدمِر، وبالتالي فيرى المستوطنين أنه للقضاء على هذه الصورة يجب القضاء على الأهالي.

وهذا الطرح يتفق مع الطرح الفرويدي كون أن الشعور بالذنب وتأنيب الضمير يؤدي إلى إرتكاب الجريمة[31]؛ وقد سمى أبو القاسم سعد الله هذه الظاهرة بمأساة النفس (بسيكودراما) والتي برزت عند المستوطنين من خلال الإقتتال بينهم والقيام بالعديد من الأعمال الإنتحارية[32]، بالإضافة إلى أن هذه السلوكيات المرضية التي كان يقوم بها المستوطنون ضد الأهالي من إستعباد وعنف لفظي ومعنوي ومادي، إنعكس وإستمر في معاملتهم الأسرية فزوجاتهم وأبنائهم أصبحوا يعاملون بعنف وقسوة وبصرامة، معتقدين أنهم مازالوا يتعاملون مع الأهالي.

- **عقدة الخوف والقلق من العربي والأهلي:** وهي إحدى مقومات الشخصية الوسواسية، فالمستوطنون وبالرغم من مظاهر القوة وإحكام السيطرة على الجزائر والأهالي إلا أنهم يعيشون دوما عقدة الخوف من المجهول[33]؛ وأكد محمد حربي هذا الأمر "...كان الهاجس الذي يَقُض مضاجعهم هو خوفهم من أن تدور الدائرة وتنقلب الأية، لذلك كان الخوف من العربي راسخا في أعماق العقلية الإستعمارية..."[34]؛ وهو السبب الذي يرجعه فرانز فانون في قيام منظمة الجيش السري قائلا: "...القوى الإستعمارية التي أيدت وساندت مساندة تامة التجربة الفاشية كانت واقعة تحت تأثير رعب مصدره الخوف من أي تطور يؤدي إلى تحقيق تصفية الإستعمار"[35].

كما كان الخوف يتملكهم من تزايد عدد الأهالي حيث أصبحت المستوطنات الأروبية محصارة بجيوش من الأهالي خاصة بعد قلة العمليات العسكرية التي كان يقوم بها كتائب الجيوش الفرنسية والقصف المدفعي والجوي للجبال وكذا سياسة "عزل السمك عن الماء أو عن البحر" والتي تقوم على أساس تهجير الأهالي من الجبال والأرياف والبوادي لأجل عزل المجاهدين الجزائريين، كما يتملكهم الخوف القلق الكبيرين من تصاعد نفوذ الجزائريين خاصة بعد إقبال الكثير منهم على إسترجاع الأراضي المغتصبة عن طريق الشراء، بالإضافة إلى تصاعد نخبة من الجزائريين المتعلمين والمثقفين، كيف لا وهم الذين قادوا فيما بعد المقاومة الفكرية عن طريق

الجرائد والمجلات والإصدارات الثقافية على قلتها وكذا الجمعيات السياسية... وغيرها؛ ولهذا يقول عزالدين ميهوبي "إن الغرب يهابك عندما تكون له ندا في الفكر".

- **الكذب:** يعد الكذب أحد أهم مقومات الشخصية الهستيرية وهي تتجلى لنا من خلال مختلف الميكانيزمات التي يستخدمها الأروبي والمستوطن في إيهام نفسه بالتفوق العرقي البيولوجي والحضاري على باقي الأجناس الأخرى، بل ومحاولة إيهام الأخر وهو الأهلي على الحتمية البيولوجية التي مفادها تخلف العرق والإنسان العربي بيولوجيا طبيعيا أي أنه خُلق هكذا ثم أنه لا يمكنه التطور والرقي والوصول بنفسه إلى مصاف الإنسان الأروبي ولهذا وجب مسايرته وتوجيهه وتطويره من طرف الأروبيين وغيرهم، بالإضافة إلى قيام مفكري العقل الإستيطاني بخلق قصص أسطورية تمجد الإنسان الأروبي وهذا ما برز في تلك الصفات التي حملتها شخصية كاغايوس الأسطورية التي وردت صورته في معظم أعداده بصفة المنتصر، والمؤدب للأهلي والتي جعلت العديد من المستوطنين يقلدونه في مختلف تفاصيل حياته كالملابس والمعاطف الضيقة الوسط التي نالت الكثير من الشهرة في ذلك الزمان حتى أصبحت من المودة الجديدة الشائعة الصيت حتى في فرنسا نفسها، ويرجع هذا الحب الكبير والولع الشديد بهذه الشخصية الأسطورية المتفوقة إلى كونها تُعبر عن أمال وأحلام هؤلاء المستوطنون.

كما تتجلى سمة الكذب في شخصية المستوطنون من خلال قيام القادة العسكريين والسياسيين الأروبيين بالجزائر بإختلاق الأحاديث النبوية وتلفيق وإبداع الأقوال المأثورة التي تُنبأ بدوام السيطرة الإستعمارية على الجزائر وبعدم جدوى المقاومة والثورات ضد الكيان الإستيطاني، وهذا يدخل في إطار عمليات غسيل الدماغ الواسعة النطاق.

فهذا الجنرال ريشارد يضع خطة مفادها إستئجار جماعة من الدراويش ودفع لهم مكافآت شهرية شريطة التكلم بخلفية دينية في مصلحة المستوطنين والسلطات الإستعمارية وبإيعاز منهم في مختلف المناسبات[36]؛ ولهذا نجد جمعية علماء المسلمين كحركة سياسية ذات رسالة ثقافية علمية وإجتماعية التي تأسست عام 1931 قامت بالتركيز في عملها على زرع روح الوطنية في نفوس الشباب الجزائريين وتعليمهم بلغة أبائهم وأجدادهم وتعريفهم بالتراث الإسلامي وخلق الوعي الاجتماعي ومحاربة رجال الدين المزيفين الذين حاولت فرنسا إستغلالهم في نشر إسلام مزيف يخدم مصلحة المستوطنين[37].

وبهذا تتجلى لنا الملامح النفسية للشخصية الكولونيالية المرضية من خلال إجتماع العديد من السمات المرضية من السادية إلى عقدة تأنيب الضمير وإحتقار الذات، وعقدة الخوف والقلق كأحد سيمات الشخصية الوسواسية، وتجذر الكذب الذي يُبرز لنا الملامح الهستيرية في بناء الشخصية الكولونيالية، وهكذا يقدم لنا المدخل النفسي صورة واضحة لطالما أغفلناها عند تفسير تلك السلوكيات الكولونيالية المشينة للإنسانية من إبادة جماعية وتقتيل وتنكيل بالجثث والتفنن في التعذيب وإستخدام العنف (الفظي، المعنوي والمادي) كعقيدة ومرجعية تحكم معاملة المستوطِن للأهلي، وهكذا تنزل الشخصية الكولونيالية من علياء الإنسانية إلى سفح الحيوانية والتوحش والبربرية.

3- مقومات الروح الصليبية في بناء الذهنية الكولونيالية

ألّف أحد الكتاب الروس يدعى "دي دودنستيف" كتابا عنوانه كالتالي: "لا يعيش الإنسان بالخبز فقط" والتي معناها أن كل الناس يجرّون وراءهم ماضيهم وإرتباطهم اللاشعوري بمبدأ روحي معين[38].

ولهذا ففهم عقلية المستوطنين غير متيسرة إذا لم توضع في إطارها اللاتيني وبعدها الديني الكاثوليكي لأن الفرنسيين يسمعون دائما عن تلك الشخصيات الأسطورية كشارل مارتل ولويس التاسع رواد الحملات الصليبية الأولى[39]؛ الذين كانوا يغيرون على البلاد الإسلامية مشعلة تلك الحروب الظالمة تحت مسمى الحروب الصليبية والفتوحات المسيحية النابعة من الحقد الديني والإنتقام التاريخي للإنتصارات التي كان المسلمون يحققونها في الأراضي المسيحية إبان العصور الزاهية للفتوحات الإسلامية، وهذا ما جعل العديد من القادة العسكريين يرددون "أن فرنسا هي البنت البكر للكنيسة الكاثوليكية" والذين كانوا يرون في إستعمار فرنسا للجزائر وإنتصارها عليها هو بمثابة "إنتصار الصليب على الهلال" وما يوضح هذه العقيدة وهذا الحقد الدفين على الإسلام هو قيام السلطات الفرنسية بعد إحتلالها للجزائر بتقليص عدد المساجد وتحويل بعضها إلى ثكنات عسكرية فيما لقي البعض الأخر مصير مسجد "كتشاوة" الذي تحول إلى إسطبل.

وتبرز كذلك الروح الصليبية لدى المستوطنين من خلال ما سماه مصطفى الأشرف "محاولة إحياء روما" مستدلا بقصة كافنياك أحد القادة العسكريين الفرنسيين والسفاحين الأوائل عندما توقف مستغرقا متأملا أمام صليب من العهد

الروماني المسيحي منقوش على صخرة في مدينة موزاية قائلا: "بما أنها (أي روما) قد حكمت هنا فما علينا إلا أن نواصل عملها"[40].

وما يؤكد إستمرار هذه الروح الصليبية لدى المستوطنين هي تلك الصلاة المسيحية التي أقامها أنصار الجزائر الفرنسية وراء المتاريس في جانفي 1960 وكذلك حضور راؤول صالان (Salan) أحد أقطاب المنظمة المسلحة السرية الصلاة المسيحية التي أقيمت بذكرى القتلى الفرنسيين بالجزائر في أكتوبر 1960؛ وكذا قيام جون جاك سيزين (J.J Susini) أحد مؤسسي وقادة المنظمة المسلحة السرية (OAS) قبلها بإنشاء العديد من الحركات الدينية المسيحية حتى أصبح يعرف برجل الصليب السلتي(croix celtique)[41].

كما أكد هذه الروح ومدى تجذرها في بناء الشخصية الكولونيالية الجنرال ديغول منظر الإستعمار الجديد وهو القائل أننا سنعود بعد 30 سنة (وقد صادفت 30 سنة بعد الإستقلال سنوات التسعينات التي عرفت بسنوات الدم والدمار)، وقد صرّح هذا الأخير في مذكراته "مذكرات الأمل" بأن الحرب التي تخوضها فرنسا في الجزائر هي حرب صليبية؛ كما تتأكد الروح الصليبية في عقيدة أنصار الجزائر فرنسية التي أقدمت على تأسيس منظمة الجيش السري (Organisation armée sécréte) التي إعتبرت إستقلال الجزائر هو تفوق الهلال على الصليب.

خاتمــة:

وعليه نستنتج أن الإنسان الأروبي كنموذج للشخصية الكولونيالية يتسم ويتميز بسمات ومميزات وخصائص سوسيونفسية عديدة فبالإضافة إلى النزعة الاستعمارية و الاستيطانية و اتصافه بالطبع المدمر بالمفهوم الذي يقدمه المفكر الألماني فلتر بنيامين، نجد الإنسان الكولونيالي يعتمد في استعماره للأوطان استخدام مقولات كبرى تبريرية لأفعاله العدائية، كمقولة: تفوق الإنسان الأبيض والعرق الأروبي على باقي الأعراق، ومركزية الثقافة الأروبية والحضارة الغربية، إتهام الآخر بالتخلف والدونية كإيديولوجيا شمولية، ومن الأساسات التي أعتمدت في بناء الشخصية الكولونيالية للإنسان الأروبي هو الاحتقار والعنصرية والعقلية الإقصائية المعتمدة ضد الآخر المختلف عنه بثقافته ، فنجده يصفه بالحيواني ودون الإنسان، ويلصق به وسم القذارة والوسخ والتخلف البيولوجي وغير القادر على تسيير شؤونه...وغيرها، مبررا إقصائه من ممارسة حقوقه الإنسانية والسياسية حتى وهو تحت بطش الاستعمار.

كذلك نجد أن نفسية الشخصية الكولونيالية تتميز بالمرضية حيث يشهد شاهد من أهلهم، فهذا الفيلسوف الوجودي الفرنسي جون بول سارتر واصفا الأوروبيين جراء أعمالهم الإجرامية بقوله: "إننا مريضون مريضون جدا"، ويضيف كذلك "أن فرنسا كانت في السابق اسم دولة ولكن الآن هي تعني العصاب"، إضافة إلى أمراض نفسية أخرى تؤكد النفسية المرضية للشخصية الكولونيالية كالسادية وحب العنف ومشاهد التقتيل وقطع الروس واللعب بها والتمثيل بالجثث، وكذا عقدة الخوف والقلق المفرط، والكذب والإقتناع به، إضافة إلى الشعور في بعض الأحيان بالدونية واحتقار الذات في مقابل التهجم على الآخر للقضاء عليه والتلذذ بتعذيبه؛ كما تعتمد الشخصية الكولونيالية مبررات دينية ثيولوجية لكي تستمد منها القوة والتبرير والشرعية في الاستعمار والتدمير وهو ما يتجلى في إقدام الإنسان الأوروبي على استعمار الأوطان تحت غطاء الحروب الصليبية واسترجاع تراث روما الكاثوليكية في البلاد العربية.

الهوامش والإحالات:

1) جون سكوت، **علم الاجتماع المفاهيم الأساسية**، ترجمة محمد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط1، 2009، ص ص316-.317

2) نفس المرجع، ص3202

3) أبو القاسم سعد الله، مرجع سبق ذكره، ص.47

4) نفس المرجع، ص54.

لاكاغايوس(la cagayous): هو مخلوق أدبي أبدعه أغست روبينيه (1862-1930) الذي كان يكتب باسم مستعار هو موزيتMusetteإشتغلبالمحامات بمدينة الجزائر، وصحفيا، ومفتش للمساعدات الاجتماعية، حيث كان يعتمد في كتاباته على معلوماته عن الطبقات الدنيا للأقلية الأروبية في الجزائر؛ وهذا البطل الروائي الأسطوري مولود بحي باب الواد من أب فرنسي وأم إسبانية وذو مزاج شعبوي، وكثير التنقل في حياته، وكانت الإصدارات الأسبوعية التي تصف مغامرات كاغايوس سرعان ما يختطفها الناس من الأكشاك، وبعض هذه الأعداد أعيد طبعها حوالي خمس مرات مثل عدد زواج كاغايوس مرتين في 1924، وثلاث مرات سنة 1944، ووصل ولع المستوطنين بهذا البطل الأسطوري درجة أنه أصبح علامة مسجلة طُبعت على أنواع من السجائر والأثاث والملابس خصوصا الضيقة الوسط (هو نوع اللباس الذي يلبسه البطل حسب وصف الروائي).

5) نفس المرجع، ص51.

6) إيمانويل سيفان، **الإستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر**،ترجمة أبي القاسم سعد الله، جريدة السلام،العدد 129، 1991/04/07،ص06،نقلا عن:دحمان تواتي،مرجع سبق ذكره، ص41.

7) أبو القاسم سعد الله، مرجع سبق ذكره، ص53.

8) نفس المرجع، ص54.

** يرى أستاذ الأنتروبولوجيا ومترجم كتاب علم الاجتماع المعاصر لصاحبييه "جان بيار دوران"، و"روبير فايل" الأستاذ ميلود طواهري أنه أصبحت الحدود بين الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع في تلاشي.

9) نفس المرجع، ص60.

10) نفس المرجع، ص59-61.

11) نفس المرجع، ص73-75.

12) أبو القاسم سعد الله، مرجع سبق ذكره، ص ص64-.65

13) نفس المرجع، ص51-52.

14) محمد الطيبي، مرجع سبق ذكره، ص216.

15) ألبير ميمي، مرجع سبق ذكره، ص78.

16) نفس المرجع، ص74.

17) محمد الطيبي، مرجع سبق ذكره، ص220.

18) فرحات عباس، مرجع سبق ذكره، ص117.

19) محفوظ سماتي، **الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها**، ترجمة محمد الصغير بناني، عبد العزيز بوشعيب، منشورات دحلب، الجزائر، 2007، ص189.

20) نفس المرجع، ص189-190.

21) أنظر مصطفى الأشرف، مرجع سبق ذكره، ص291، وأنظر جمال معتوق، **مدخل إلى علم الاجتماع الجنائي**، دار بن مرابط، الجزائر، ج1، 2009، ص324.

22) مصطفى الأشرف، مرجع سبق ذكره، ص ص105-107.

23) فرحات عباس، مرجع سبق ذكره، ص.78

24) عمورة عمار، مرجع سبق ذكره، ص117.

25) عشوري مصطفى، **قراءة نفسية لكتاب الإستعمار الإبادة**، مجلة أفكار وآفاق، الجزائر، العدد الأول، مارس 2011، ص.171

26) مصطفى الأشرف، مرجع سبق ذكره، ص295.

27) محمد الطيبي، مرجع سبق ذكره، ص216.

*** يذكر أن **جون بول سارتر** يعتبره الكثير من المثقفين الجزائريين بأنه صديق الثورة الجزائرية، ورفض جائزة نوبل للأداب عام 1967، وقد أُتهم سارتر بالخيانة لوطنه وطُرد من فرنسا وهو أحد

الممضيين على "البيان 121" المساند للثورة الجزائرية، وهذا ما جر عليه محاولات عديدة لإغتياله من طرف أنصار الجزائر فرنسية من بينها تلك المحاولات التي قامت بها منظمة الجيش السري الإرهابية (OAS)، لكن ما يُعاب عليه سقوطه في أحضان الصهيونية والدفاع عن إسرائيل في أخر أيام حياته .(انظر عبد المجيد عمراني، **جون بول سارتر والثورة الجزائرية**).

28) جون بول سارتر، **عارنا.. في الجزائر**، ترجمة عايدة وسهيل إدريس، دار الأداب، لبنان، ط2، 1958، ص.35

29) مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص ص288-294.

30) جون بول سارتر، مرجع سبق ذكره، ص35.

31) أنظر جمال معتوق، مرجع سبق ذكره، ص136.

32) أبو القاسم سعد الله، مرجع سبق ذكره، ص.50

33) محمد الطيبي، مرجع سبق ذكره، ص224.

34) محمد حربي، مرجع سبق ذكره، ص ص86-.87

35) فرانز فانون، **من أجل إفريقيا**، ترجمة محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1980، ص139.

36) مصطفى الأشرف، مرجع سبق ذكره، ص340.

37) حسينة حماميد، مرجع سبق ذكره، ص35.

38) شاوش حباشي، **من مظاهر الروح الصليبية للإستعمار الفرنسي بالجزائر**، دار هومة، الجزائر، 1998، ص44.

39) دحمان تواتي، مرجع سبق ذكره، ص48.

40) مصطفى الأشرف، مرجع سبق ذكره، ص ص283-284.

41) شاوش حباسي، مرجع سبق ذكره، ص50.